

إِذْهَاهُ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ هُنَّ بِشَبَعِ الدَّوْلَةِ بِالرَّوْعِ الْإِسْلَامِيَّةِ

بقلم الدكتور جلال رحيم بدر (الكويت)

سمعنا من الاساتذة في المدارس ان للاسد خمسمائة اسم او اكثر في العربية . ان الكثرة من هذا القبيل لا اعتبرها مميزة . ان المترادفات تكون لها قيمتها اذا كان هناك فرق بسيط في المعنى بين كل كلمة والكلمة التي ترادفها . كالفرق مثلا بين الكلمات المترادفة (احس) و (شعر) و (لمس) . ان لكل كلمة من هذه المترادفات الثلاثة معنى يختلف اختلافا طفيفا عن المترادفين الآخرين ، ولهذا فلكل مترادف قيمته . اما المترادفات الموضوعة لاسماء الاسد ، فقد يكون منها ما يعطى صفات معينة للاسد ، كالقوة والبطش والكبرياء والته والخلاء وما الى ذلك . ولكنني لا استطيع ان اتصور للاسد خمسمائة صفة تحتاج الى خمسمائة اسم . فكثرة الاسماء المترادفة لا ارى فيها مميزة اذا كانت تحمل المعنى نفسه تماما دون اى اختلاف .

الواقع ان اللغة العربية تتميز بميزة هامة عجيبة هي الاشتقاق . فالكلمة الواحدة كأنها مادة لعنة مطواعة تضفط وتمط وتلوى بحيث تعطى في النهاية المعنى المطلوب منها في منتهى الدقة . فمن الفعل الماضي « فعل » يمكن ان نجد كلمات لا يستطيع حصرها امثالي من غير المتخصصين في اللغة - مثل فعل وتفاعل وتفعّل وانفعل وفاعل

اذا اردنا التحدث عن علاقة الاسلام باللغة العربية وجب ان نعرف مميزات اللغة العربية فيما يتعلق بقدرتها على التعبير عن الفكر بأشكاله . وكذلك مميزات الاسلام في مدى علاقته مع لغة التعبير ، حتى يكون في وسعنا ان نقدر اثر احدهما على الآخر ، ونستعين بالملاحظة والتجربة لتأييد ما نذهب اليه . والواقع انني اذا كتبت في هذا الموضوع فان آرائي كلها ستكون مبنية على التجربة والملاحظة من بدنها الى منتهائها . فلست عالم لغة ولست عالم دين وانما انا كاتب علمي اكثر مما اكتب فيه هو علم الفلك ، واللغة هي وسيلتي للتعبير والدين يضع لى الحدود التي يمكن ان يصل اليها بحنى . وقد يبدو مما سأقول ان الموضوع ذاتي في صلبه ، ولكن الكتابة عن التجارب الخاصة لا يمكن ان تكون الا ذاتية الطابع ، بيد انها موضوعية الهدف .

مميزات اللغة العربية -

لقد سمعت رايًا ، ووجدت بالتجربة صحة هذا الرأي ، يقول بان اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي خلقت كاملة او وجدت كاملة منذ ان عرفت . فقيها من الفنى ما لا يعرف في اى لغة اخرى - حديثة كانت ام قديمة . وقد يتبادر الى الذهن ان كثرة المترادفات هو المقصود بهذا القول . فطالما

وافعل ، ومن الصفات المشبهة والمبالغة نجد فصول وفعال وفاعل ومفعول وفعل وفعالة ومفعل وما الى ذلك . المهم فى هذه الكلمات ان كل واحدة تختلف عن الاخرى اختلافا بسيطا بحيث تؤدى المعنى الدقيق المطلوب منها فى الادب او العلم ، والسدى تتطلبه مقتضيات الحضارات المتطورة دائما وابدا .

ولا ضرب مثلا واقعا من تجربتى الخاصة .

ان العلم الحديث بعد ان ازدادت المادة التى يمكن ان يكتب فيها ، اصبح يستدعى اختصار الاسماء الطويلة ، وليس اثقل على السمع من ذكر اسم آلة من الآلات اذا كان يتركب هذا الاسم من كلمتين او اكثر ، خاصة اذا كان ذلك الاسم يتكرر ذكره كثيرا فى البحث الواحد . وهناك آلة يستعملها الفلكيون تحلل الطيف ، واسمها فى الانجليزية (وفى كل اللغات القريبة فى الحقيقة) Spectroscope . وهى مكونة من مقطعين اولهما لاتينى ومعناه الطيف وثانيهما يونانى ومعناه منظار . وكنت اترجمها فيما اكتب من بحوث « بالتحلل الطيفى » . وقد كنت اشعر بثقل هذه الكلمة اذا كان البحث يستدعى تكرارها . وقد اطلعت الدكتور فؤاد صروف على كلمة واحدة وضعها بالاشتقاق اسما لهذه الآلة وهى « المطياف » . وقد اعجبنى الاسم ووافقت شخصا على استعماله فى كتاب بدائع السماء الذى ترجمته وقام الدكتور صروف بمراجعته . وقد ادخلته فى القاموس الفلكى الذى وضعته فى نهاية الكتاب .

وهناك مثلان آخران من كتاب بدائع السماء ايضا ، وهما بالصدفة من كلمة واحدة من اللغة العربية .

نعرف ان العرب الذين بلغوا بحساب المثلثات درجة الكمال ، سمو زاوية النظر عند تقدير الابعاد فى مثلث (زاوية الاختلاف) . وهذه الزاوية هى المعروفة الآن فى اللغات الغربية باسم Parallax . وهى اسم يتردد كثيرا فى بحوث خاصة من علم الفلك . ولما كانت مكونة من كلمتين فان استعمالها ثقيل ، كما قلنا . وفى اثناء البحث عن معناها فى القواميس وجدت فى قاموس النهضة لاسماعيل مظهر كلمتين اعجبت بهما ، لان كل كلمة منهما تعطى المعنى الذى تدل عليه هذه الزاوية ، وهما « التزيح » او « التزيح » .

وقد فضلت اختيار الكلمة الاولى ، ووضعناها فى كتاب بدائع السماء وفى القاموس الملحق به ، وقد وافق عليها الدكتور صروف وفضلها على اختلاف الزاوية المكون من مقطعين .

وفى اثناء الترجمة كنت اجد صعوبة فى ترجمة كلمة Displacement ، وهى تعنى تغير موضع الشئ ، واستعمالها غير قليل فى الفلك . ومن السهل التعبير عنها بجملته اذا كان ذكرها لا يتكرر الا مرة واحدة . ولكنها اذا كانت تتردد كثيرا فيجب ان توجد لها كلمة واحدة تعطي معناها . وقد وضعت لها كلمة (التزيح) فى متن الكتاب وفى القاموس ، وقد وافق عليها الدكتور صروف ، وقال انها موفقة .

ان كلمة التزيح ، وكلمة الانزياح ، تدلان على اصطلاحين مختلفين فى الفلك ، لا علاقة للواحد بالآخر وكل كلمة منهما تعطى المعنى الدقيق للشئ الذى تدل عليه ، والكلمتان مشتقتان من اصل واحد هو زيح .

نرى من هذا اننا امام فيض من الكلمات يمكن ان نخترها من خلال عملية الاشتقاق - هذه الظاهرة الغربية العجيبة التى تتميز بها اللغة العربية . واننى اتصور اننا اذا امسكنا بالمصطلحات العلمية الحديثة كلها فلن نجد كلمة واحدة يمكن ان تستعصى على اللغة العربية دون ان تجد لها مقابلا دقيقا جدا يعطى المعنى المقصود تماما . وارجو من القارئ ان لا يفهم من هذا اننى امهد الى فكرة ترجمة جميع المصطلحات العلمية الحديثة الى اللغة العربية بكلمات عربية صرف مستغنيا عن جميع الكلمات التى دخلت الى العربية باللفظ الاجنبى ، فتفصيل هذا سأتكلم عنه فى حينه ، ان شاء الله .

اتما الذى اهدف اليه هو اننا نمتلك كنزا فيه من الخيرات ما لا يتوفر لغيرنا من الامم . والواقع ان اللغات فى الامم المتحضرة فى العصر الحديث لم تستطع بذاتها ان تجاري الحضارة ومتطلباتها فلجأ بعضها الى بعض واعتمدت على الاغريقية واللاتينية وخرجت لنا بمصطلحات امكنها ان تجاري عصرها ، اما بطبيعتها فهى عاجزة حتما . اعرف هذه الحقيقة على الاقل فى الانجليزية والفرنسية . اما اللغة الروسية فمعلوماتى عنها معدومة عمليا ، الا ان اسماء بعض الاقمار الاصطناعية مثل لونا وكوزموس يدل على انها تعتمد ايضا على اليونانية واللاتينية .

انما كان انتشاره وامتداده على اساس آخر - مجرد عبادات ووحداية وقوانين عادلة وهذه بعد ذاتها دافع كبير لاعتناق هذا الدين والتمسك به ، وهى هدى من الله سبحانه وتعالى توحى لمعتنق الدين بالراحة النفسانية - ولكنها تفتقر الى الدافع العقلانى الذى اصبح مفقودا فى هذه الآونة . وفقدان الدافع العقلانى فى الدين ، ومجىء حاكم ظالم لا يعرف من الدين الا التقاليد التى جعلته خليفة للمسلمين هو الذى حول الطابع الحضارى للإسلام ، وجعل الحضارة الاسلامية العربية تقبع مدة طويلة من الزمن وينعدم فى الواقع تقدمها هذا اذا لم تكن قد فقدت كثيرا فى هذه الآونة من تراثها السابق .

وايضاحا لهذه النقطة اقول ، ان الدين الاسلامى ليس مجرد عبادات صادرة عن عقيدة يؤمن بها الانسان وحده فحسب بل انها بالاضافة الى ذلك روح مجتمع يشمل الجماعات بالاضافة الى الافراد ولما كانت السيطرة فى القرون الاربعة السالفة فى العالم العربى لخليفة لا يرتبط بالمروبة ويخشى على عرشه من الفكر الاسلامى الصحيح الذى يؤمن بالعقل ويدعو الى التفكير ، لهذا كان الضغط على هذه الظاهرة الحضارية .

واذا جاز لنا ان نقسم فى سبيل البحث المظاهر الاسلامية ، نستطيع ان نقول ان هناك ظاهرتين - ظاهرة اسلام الفرد وظاهرة اسلام الدولة او المجتمع . وللظاهرة الاخيرة الاثر الاكبر فى ازدهار اللغة العربية وانتشارها وقيامها بالدور المطلوب منها فى تادية واجبا الحضارى .

فعلاوة عن ازدهارها فى العصر الاموى والعصر العباسى الاول ، نجد انها استمرت فى التقدم فى العصور العباسية المتأخرة ، على الرغم من اضمحلال السلطة الزمنية للخليفة العباسى . وكان فى الفترات العباسية المتأخرة دولات عديدة متفرقة فى انحاء الامبراطورية الاسلامية يحكمها امراء مختلفون ، وبعضهم قد لا يكون عربيا . ولكننا فى هذه الفترة نرى ازدهار اللغة العربية فى نواحى الفكر المختلفة من ادب وفلسفة وعلوم . وقد ظهر كثير من جهابذة الفكر فى هذا الوقت ، وكثير منهم لم يكن عربى الاصل ، وانما كان يكتب ويفكر باللغة العربية كالبيرونى وابن سينا . ويمكن للباحثين فى تواريخ رجال الفكر ان يجدوا الكثير من هؤلاء الذين لم يكونوا عربا فى اصلهم وانما كانوا مسلمين مؤمنين يعيشون فى امارة تحمل الروح العربية فى سلطنتها

وخلاصة القول ان لغات الحضارة الحديثة ولدت ونمت نموا طبيعيا ، ولما كانت ولادتها غير كاملة فقد اعتمدت فى نموها على اللغات المجاورة وعلى اليونانية القديمة واللاتينية ، وتفاعلت الى ان وصلت الحد الذى استطاعت فيه ان تجاري المدنية التى قامت فيها . وقد تميزت هذه اللغات على الغالب بميزة غير متوفرة فى اللغة العربية ، وهى ان كلماتها تتكون من مقاطع يحمل المقطع معنى خاصا به ، فآخذت تستعير المقاطع من بعضها وتكون الكلمات التى هى بحاجة اليها . ولا اعتقد ان لغة من هذه اللغات ، المتشابكة فى منشئها ، لها من ذاتيتها ومن طبيعتها المقدرة على مجاراة حضارة من الحضارات .

قد تكون اللغة العربية مميزات اخرى ، ولكن الشيء الذى يهمنى فى الواقع من حيث مجساراة العلوم والآداب والفكر المتطور هو الاشتقاق والمقدرة على التعبير .

مميزات الاسلام -

وقد تكون مميزات الاسلام اكثر من ان احصياها، الا اننى فى حديثى هذا لن انطرق الا الى ميزة هامة رئيسية ، قد تكون هى الأساس الذى تقوم عليه المميزات الاخرى - الا وهى ان الدين الاسلامى دين العقل . فهو لا يندفع الى المادية المتطرفة ولا الى الروحانية المتطرفة ، وانما يجعل العقل هو الحكم فى جميع الامور . وهو يضع تعاليمه بناء على العقل ، ويخاطب دائما اولى الالباب والذين يعقلون والذين يتفكرون . وهو يحترم العلماء الذين يخافون الله بناء على علمهم الذى يرشددهم اليه . واذا كان العقل هو الأساس الذى تقوم عليه حضارة امة من الامم ، فمن المنتظر ان تنتشر هذه الحضارة وتمتد وتعمر طويلا ، وهذا فى الواقع هو الذى كان .

فقد استمرت الحضارة الاسلامية عصورا طويلة من الزمن الى ان جاءت الشعوبية فنخرت فى عقلانية الحضارة وحولتها الى اى شىء آخر ما عدا العقلانية ، وجاءت عصور الظلام .

والواقع ان عصور الظلام هذه لا تمنى رجوع الناس عن الدين الاسلامى ، بل قد يكون الامر بالعكس - ففي هذه العصور امتد نطاق النفوذ العثمانى الى اوربا الشرقية والوسطى ، ونستطيع ان نقول ان المسلمين قد ازدادوا عددا . ولكن الكيفية التى اصبح الاسلام فيها كانت قد تغيرت . اجل ، اخذ الاسلام ينتشر ويمتد فى هذه العصور ،

الزمنية ، ووجدوا من الطبيعي ان يتكلموا ويفكروا ويكتبوا باللغة التي حدثهم بها دينهم والتي نما بها تفكيرهم . وهذه الكتابات العربية التي قام بها هؤلاء المفكرون وكتبوها بلغة القرآن لا يمكن ان نكتسفي بوصفها بأنها حضارة اسلامية فحسب بل انها حضارة عربية ايضا . من الصعب جدا ان نفرق بين المروبة والدين في هذه الفترة من الزمن . ان الروح المتوثة المنطلقة التي جاء بها الدين الاسلامي لم يكن يستطيع ان يتكلم عنها غير لغة الدين نفسه ، هذه اللغة التي تملك مميزة الاشتقاق . وبالطبع لا يمكن ان تخلو هذه الفترة من شعوبيين من الكتاب حاولوا جهدهم ان يجعلوا سبب هذا الانطلاق هو الدين الاسلامي وحده ، وان ينزعوا فضل اللغة العربية او العروبة كلها من الموضوع .

ارى ان البحث الذي اطرق اوسع من ان اوفيه حقه في استفتاء قصير كهذا فهو في الواقع ليس الموضوع الذي تخصصت في الكتابة فيه وقد تكون اسطحية في بحث كهذا اكثر ضررا من اغفال البحث كله .

خلاصة ما اقصد اليه في هذا الحديث هو ان روح الدين الاسلامي اذا وجدت في السلطة الحاكمة فانها ستدفع باللغة العربية الى الامام ، وهذا ما يفسر لنا تفهقر اللغة والفكر الاسلامي كله في فترة الحكم العثماني .

دلائل تقدم اللغة في عصور ازدهارها -

سوف لا انطرق الى تقدم اللغة في الادب والشعر والدين تاركا للمتضمنين في هذا الشأن ايفاء الحديث حقه . ولكنني سوف اتناول ذلك بقدر ما يتيسر لي ، فافترض ان اللغة المتقدمة في العلم هي التي تستطيع الايضاح عن المفاهيم العلمية سواء بالاسلوب او المصطلحات . ولا اظنني بحاجة الى ذكر البيان والبديع والاساليب البلاغية المتوفرة في اللغة العربية . انما اقول ان العلوم بدات في مطلع الدولة العباسية تترجم ، ثم اخذ يظهر من العلماء من يهضمون محتوياتها ، وسرعان ما ظهر الكندي الذي بدا يضع الاصول لعلم البصريات وعلم الاجواء ومختلف العلوم الطبيعية ، وبدانا نجد العلم العربي الاصيل التابع من علماء فهموا محتويات التراجيم اليونانية وهضموها هضمًا جيدا واخذوا يزيدون عليها . وبطبيعة الحال بدات المصطلحات العلمية تظهر شيئا فشيئا ، ومع مرور الزمن ظهر فطاحل العلم في

القرون الوسطى كابن سينا والبيروني والرازي وابن الهيثم ونصر الدين الطوسي وعبد الرحمن الصوفي . ونلاحظ في خلال مراجعتنا لبعض هذه الكتب او كلها الملاحظات التالية :

1 - المصطلحات العلمية - غير اسماء الاعلام اصبحت كلها عربية خالصة ، وبلاحظ القارئ بساطة هذه المصطلحات الجديدة الخالية من التعقيد . فلا يشك احد مثلا ، بان عبد الرحمن الصوفي عندما وضع كتابه صور الكواكب ، كان يعرف الزوايا وقيس ابعاد النجوم عن بعضها بهذه الوسيلة بواسطة الاسطرلاب والسدس . ولكنه يذكر في متن الكتاب اصطلاحات لا علاقة لها بالزوايا ، كالرمح والذراع والشبر والاصبع . فيقول ان النجم الفلاني يبعد عن النجم الفلاني بمقدار ذراع مثلا . او بمقدار رمح او شبر او اصبع . ويخال القارئ للكتاب ان هذه الاصطلاحات هي مسائل تقديرية من الصوفي . والواقع غير ذلك - فالرمح في قياساته تساوى ما يعرف الآن بمسافة 14 درجة (كالمسافة التي تفصل بين نجم « بيت الجوزاء » Betelguese ونجم «رجل» Rigel في مجموعة الجبار الذي يعرف ايضا بالصيد) ، والذراع هو سدس الرمح ويساوى درجتين وعشرين ثانية ، والشبر هو ثلث ذراع اما الاصبع فهو جزء من اثنين وثلاثين جزءا من الذراع .

وهذه التعابير البسيطة اذا اصبحت تدل على قياسات دقيقة دخلت نطاق العلم كمصطلحات علمية . ولا نجد ان العرب قد لجأوا الى تعابير اجنبية في اصطلاحاتهم العلمية ، اذ كان في لغتهم متسع لكل ما يطلبون .

2 - نجد كثيرا من الاصطلاحات مكونا من كلمتين ، مثل (اختلاف الزاوية) و (خط الزوال) . وقد تكون لهم حجتهم في هذا الاختيار . فالكتيب قليلة ان لم تكن نادرة ، والوقت طويل لقراءة الكتاب والتمعن فيه ، على عكس هذا الزمن الذي لا يجد الانسان الوقت فيه لكي يراجع مئات الكتب في اي موضوع يشاء .

3 - نظرا لثقة العلماء في انفسهم كانوا يبقون الاسماء التي تدل على اعلام على ما هي عليه مع بعض التعريب . فكتاب بطليموس حافظوا على اسمه تقريبا - المجسطي وكذلك اسماء المجموعات النجمية التي تدل على اعلام - مثل قيفاوس Cepheus

الحفاظ على هذا النظام هو الأساس الذي تقوم عليه الدولة ، وفي أواخر عهدهم أصبحوا يدرسون اللغة العربية التي لا غنى لهم عنها باللغة التركية . هذا الازدواج في شخصية الدولة بين الدين الصحيح والجنسية الحاكمة لم يؤثر في مدى انتشار الدين الإسلامى على أساس العقيدة الفردية ولكنه اثر على الفكر تأثيرا كبيرا . وغندت روح الدولة اسلاما كهنوتيا اذا صح لنا هذا التعبير .

وكل ما استطيع ان اقدمه من اثبات على صحة كلامى هذا هو انعدام العلماء العرب ، او على الاقل انعدام اولئك الذين كان يمكن ان يحدثوا اثرا في الفكر . وبالإضافة الى ذلك اصبحنا نجد عجزا في اللغة المستعملة ، ونحن حتى الآن لم نقف الاناقسة الكاملة من ذلك الكابوس المزيج الذى استمر حتى اوائل القرن العشرين . فقد مرت هذه القرون الاربعة من الزمن ، والحضارة تغد السير ، والآلات المختلفة تظهر الى الوجود ، ولغتنا الغنية فيما سبق تفتقر الى كلمة « طاولة » . هذه اللغة التي يوجد فيها للاسد اكثر من خمسمائة اسم لم يعد فيها اسم واحد يدل على متاع موجود فى كل بيت تقريبا ، وهو ما يسمى بالعامية طاولة . هناك كلمات فى اللغة العربية مثل منضدة ومائدة ، ولكنى اظن هاتين الكلمتين لا تكفيان لانواع الطاولات الموجودة فى البيوت . وفى رأى ان هذا المتاع اذا كنا سوف نتضد عليه اشياء فيجب ان يكون اسمه المنضدة ، ويحق لنا ان نسميه مائدة اذا كنا قد خصناه للاكل ، وهنا خلاف جديد يظهر لنا . فمن الناس من يأكلون على مائدة لا ترتفع اكثر من شبر او شبرين عن الارض اكثر من ذراع . فإى هذه الاوضاع الثلاثة جدير باسم المائدة ؟ وبعد ذلك كله ، فهناك طاولات متعددة الانواع مختلفة الاستعمال ، فمنها ما يوضع فى الوسط فى غرفة الاستقبال ويوضع عليه الزهور ، ويكون ارتفاعه اكثر من ذراع ، ومنها ما يؤدى الغرض نفسه ويكون ارتفاعه حوالي شبرين فقط ، ومنها ما يكون صغيرا جدا توضع عليه علب التبغ ومنغضة السجائر ، ومنها ما يكون طويلا جدا صغير المساحة يوضع فى زاوية الغرفة لكي يوضع عليه اص فيه شجرة صغيرة ، ومنها ما يخصص للكتابة ، وقد يكون فى هذا النوع درج او لا يكون . ويستطيع المتوسع ان يجد اصنافا عديدة جدا اكثر مما ذكرت . ليس لهذه الاغراض فى اللغة العربية الحديثة اسماء . حتى «طاولة» فهى ليست كلمة عربية .

الذى يسميه الصوفى والبيرونى قيقاوس ، ولا ادرى كيف وقع فى هذا الخطأ مع انه اسم ملك فى الاساطير اليونانية ، ولكنى ارجح ان اعجام الحروف بالتنقيط فى تلك الايام كان فيه مجال كبير للخطا . ومثل برشاوش Perseus و قنطورس Centauris حتى ان بعض المجموعات التى تحمل اسماء عريضة لم ينسوا ان يضعوا بجانبها اسمها الاجنبى . فالشلياق او السلحفاة لم ينس البيرونى ان يضع بجانبها اسمها الاجنبى اللوزا Lyra وفى كتاب صور الكواكب للصوفى طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن يذكر اللوزا (باعجام الرء) ولا ادرى اذا كان ذلك نتيجة خطأ مطبعى ام ان الصوفى يقصد ذلك ، للسبب نفسه الذى تقدم ذكره عند الخطا فى اسم قيقاوس .

اعتقد ان ثقتهم بعلمهم وتمكن منه هو الذى جعلهم ينصفون غيرهم من العلماء الذين سبقوهم ، وهم لا يرون عارا فى استعمال كلمات اجنبية اذا كانت لها قيمتها فى اسطورة من الاساطير وفى اسم شهير .

ونتيجة لذلك كله ، وضع العرب طابعهم على العلم كله ، ووصل الينا من ذلك على الاقل اسماء النجوم التى بقيت عربية حتى الآن . واتى اقول انهم لن يصلوا الى هذه الدرجة الا بروح الاسلام التى كانت طاغية فى العصور التى ازدهر فيها العلم . وتقرير حقيقة كهذه دون اثباتات وبراهين تفصيلية قد لا يكون لها وقعها المطلوب فى النفوس التى تبحث الحقائق بحثا موضوعيا . ولكنى كما قلت فيما سبق اكتب مجرد ملاحظات رايتها فى تجربتى الخاصة ، اما التفصيل فانتركه للمؤرخين والبحاثين فى التاريخ .

عصور الانحطاط -

وفى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى احتل العثمانيون القسطنطينية ، واخذوا يتوسعون فى امبراطوريتهم شيئا فشيئا وسيطروا على كل العالم العربى وغير العالم العربى ، وراوا انهم ماداموا يدينون بالاسلام فيجب ان تكون لهم الخلافة ، وامكنهم تحقيق ما ذهبوا اليه . ولكنهم كانوا يتكلمون باللغة التركية العاجزة عن ايفاء الحضارة حقها ، ولم يستطع ايمانهم بالدين الإسلامى ان يجعلهم يتخذون من اللغة العربية لسانا . واصبحت لغتهم فى الواقع خليطا عجيبا من العربية المتركة واللغة التركية . واصبح

والدوام الحضارية التي رمانا فيها المستعمرون
دعت الى ظهور اخطاء كثيرة لا اود ان اذكر منها غير
امرين يلفتان الانتباه ، فليست فى مجال تعداد
الاطغاء - :

1 - اصبح كثير من المثقفين يؤمنون بالحضارة
الغربية ايماناً يستصغرون به ما اتجته الحضارة
العربية ولا يكادون يصدقون ان العرب كانت لهم
كشوفهم وان آثارهم لا تزال واضحة فى العلم
الحديث ، والفلك بالذات . ولهذا كانت تمر فى بعض
الكتب القيمة اغلاط مستغربة . ففى كتاب « كيف
ترقب السماء » ، تأليف برائلى ، وترجمة الدكتور
محمد جمال الدين الفندى ، نشر مؤسسة فرانكلين -
نجد ان نجم « مراق » يصبح اسمه « مراك » ، ونجم
الدبة يصبح اسمه « دبى » فهو يكتب بالانجليزية
Dubhe ونجد ان نجم الميزر والذي يسمى ايضا
بالعناق يصبح اسمه ميزار ، فهو يكتب بالانجليزية
Mizar والواقع ان اسماء النجوم كما يقول اطلس
نورتون Norton's Star Atlas فى الطبعة الرابعة
عشرة سنة 1959 ، صفحة 52 « وكثير من اسماء
النجوم والعناقيد ليس لها لفظ ثابت ، فهى محرفة
او مشوهة عن اللغة العربية . فنجم ارنب يلفظ
ارنب وارنب (بفتح التون او كسرهما ونجم كف قد
يلفظ كف وتشف ... الح »

على اية حال ، فاذا كان هناك خلاف فى
اللفظ فى كثير من اسماء النجوم ، فمما لا شك فيه
ان الحروف تدل دلالة كبيرة على الاسم على الاقل لانه
يكتب فى اللغة العربية دون شكل ، ومن السهل
اخذ الحروف الصامتة من الكلمة الانجليزية وترك
حروف العلة التي تقابل الحركات . وكلمات مثل
دبة وميزر ومراق لاتحتاج الى كثير من الجهد لكى
يظهر اصلها العربى .

ولكن هناك كلمات كثيرة اخرى كاد التشويه
يفقدها اصلها العربى ، ويلقى عبء معرفة اصولها
على ما يقوم به الباحثون المتضلعون المختصون ،
ويجب ان اذكر بهذه المناسبة اباحث الدكتور عدنان
الخطيب التي اطلعت على قسم منها شخصيا ، وهى
بلا شك تدل على مجهود كبير . وبالمثل يجب ان
اشير الى المساعدات التي يحاول ان يرسلها الى
الدكتور محمد هيثم الخياط - وكلاهما من دمشق .
(الدكتور الخطيب عضو المجمع العلمى والدكتور
الخياط استاذ فى كلية الطب) .

والاغرب من ذلك كله ، ان كلمة « طاولة » كما
يبدو مأخوذة عن الاجنبية Table وهذه بدورها
مأخوذة عن اللغة العربية طبلية . وفى قاموس المنجد
الطبعة الثامنة - (الطبلية) دراهم الخراج ، ج طبلية .
والعامة تستعملها لمنزلة مستديرة مثل الطبل يرق
عليها الخبز او يؤكل عليها او نحو ذلك . وبناء على
هذا تكون بضاعتنا قد ردت الينا بشكل لم نعد
نتعرف عليه ولم يعد يتعرف علينا .

وقد استمر الانحطاط طوال هذه الفترة التي
اسميتها بالعصور المظلمة . ولولا القرآن الكريم والدين
الذى كان يدرس باصوله فى المعاهد الدينية كالازهر
الشريف بالذات ، لعلم الله ما كان فى الامكان ان
يحدث للغة العربية . اننى ارجح ان يكون مصيرها
الى الزوال والى الحفظ فى بطون الكتب الانثوية ،
لاسيما وقد سبق لغيرها من اللغات التي كانت لسان
حضارات عظيمة ان آلت الى هذا المصير - والاغريقية
القديمة واللاتينية مثلال على ذلك .

وقد بدا الشعب العربى يتعلم منذ القرن
الماضى ، وما انتهى الكابوس التركى حتى بدأت
النهضة الحديثة التي لا تزال حتى الآن فى بدايتها .
ولكنها بداية غريبة حقا . انها بداية تعتمد على
اسس عديدة يختار لها الفكر ويضع فيها . فمن
الناس من يرى ان نعتد على لغتنا وديننا ونستأنف
السير فى الحضارة على هذا الاساس ، ومنهم من
يرى ان اللغات الغربية التي اصبحت تفوق العربية
حاليا فى غناها ، هي التي يجب ان تكون على الاقل
لغة الدراسة العلمية ، ومنهم من يرى الانصراف الى
الاداب الغربية وتعريبها ولا يهم شكل اللغة التي
سيتم فيها هذا التعريب ، بل وصلنا الى امور هي
فى منتهى الغرابة - فهناك دعوات الى ترك اللفظة
العربية الفصحى كلها واستعمال اللغة العامية ، ولما
كان فى الشعوب العربية حوالي خمسين او ستين
لغة عامية تختلف الواحدة عن الاخرى كان من المفهوم
الضمنى الدعوة الى تقسيم العرب الى هذا العدد او
اكثر من الفئات وتختص كل فئة بلغتها العامية
ويصبح لها ادبها الخاص وتستغنى عن كل التراث
العربى القديم الذى لم تعد له أهمية فى نظر هذه
الفئات . وهناك دعوات اخرى منها كتابة العربية
بالحروف اللاتينية وهذه لا يستطيع ان ابدي فيها
رايا لان قراءتى عنها لم تكن مستوفاة .

على اية حال ، فقد بدأت العربية تنشط كلفة
معبرة عن المواضيع التي تطرقها، ولكن الاسس المهلهلة

2 - الخطأ الثاني الذي اود ان اشير اليه هو اندفاع بعض من يكتبون الى اعمال اللغة العربية كوسيلة للتعبير اهمالا بشكل يبعث الحيرة والاستغراب . ومن المعروف ان اللغة العربية على الاقل ان لم تزد في قدرتها على التعبير على اية لغة اخرى فانها لا تقل عنها . ولا اتكلم خاصة عن الصرف والنحو واستعمال العربية العامية او الفصحى ، وانما اعنى القدرة على التعبير بأى شكل من الاشكال . وسوف لا اضرب مثلاً من الادب السوقي الرخيص ، بل من الادب العالمى المترجم الى العربية . واعنى بذلك كتاب « النفوس الميتة » للكاتب الروسى نيكولاى جوجول، وقد يكون هذا الكتاب اشهر نص ادبى كلاسيكى روسى .

لقد نشرت دار البيضة العربية السورية هذا الكتاب فى سلسلة عيون الادب العالمى وطبعته طباعة جيدة وقام بترجمته انطون حمصى ويوسف بشار . ومن المفروض اننا نقرا نصا ادبيا قد لا يحسن الكاتب روعة الاداء ولكنه على الاقل يعطينا معنى من المعانى، ولكننا فى الترجمة المذكورة فى الصفحة 12 عندما نقرا التعليق على وصف السائق سليغان نجد ما يلى:

« ولكن الرجل الروسى .. يفخر بأنه يحافظ على علاقاته الاجتماعية بهز قبة بسيطة لكونت اوبرانس ، ولذلك فان الكاتب ليس بمطمئن لاجل بطلنا بنصيحة مدرسية ساذجة ، وقد يمكن لشل نصائح البلاط ان تتنازل للمعرفة ولكن هؤلاء الذين وصلوا الى مرتبته العامة بقوة الدسائس ، ليس من نصيبهم بالطبع الا نظرة احتقار من القارئ او ما هو اردا من ذلك ، اعنى السير قريبا منه ، دون اى اختلاف عن مشية القاتل ، اجل كل هذا محزن جدا ولكن فلندعه ولنعد الى تشيتشيكوف فيقول (ص15) :

« وان الكاتب ليعلم بأن هذا ليس من السهولة بمكان ، بل انه لاسهل علينا ان نرمى بالوان عديدة على قطعة من نسيج قشر القنب بكل سخاء . كانت عيناه السوداوتان (كذا) تشعان باللهب ... الخ » ويستمر المترجمان فى الحديث بجملة اخرى يقولان فيها انه « اشقر الشعر بعينين زرقاوتين (كذا) » قد لا يستحق هذا الكلام كل هذا التعليق ، ولكن الكتاب يعتبر نصا ادبيا وهو موجود فى مكاتب كثيرة كمرجع عن الادب الروسى الكلاسيكى ، وقد طبع الكتاب لكى يكون كذلك . ولو شئت ان ارمي بالوان عديدة على قطعة من قشر القنب بكل بخل لادركت ان اللغة العربية اصبحت اعجز من ان تؤدي

عملا . فامر ترجمة كهذه لا يمكن ان يعتبر جهلا فى الترجمة ، لان من جهل الترجمة يعطى المعنى الخاطئ الذى فهمه ، ولكن القضية كلها استهتار باللغة العربية وبالقراء العرب . انها صرخة تقول « اذا اردتم ابها العرب ان تفهموا عبقرية جوجول ، ولا احد يشك على ما اعتقد بعبقريته ، فعليكم ان تقرأوه فى لغة اخرى غير العربية . »

على اية حال ، فان الاسفاف الذى نجده غزيرا فيما ينشر فى الاسواق الان ليس دليلا على عجز اللغة العربية ، واذا تبعتنا طبيعة الناشر او هدف الكاتب من اتجاhe نجده فى الغالب بعيدا كل البعد عن الروح العربية وعن الطابع الاجتماعى الذى قامت بنشره الحضارة الاسلامية بظهور الدبسن الاسلامى .

بداية النهضة الحديثة فى لبنان :

يجب ان لا نستغرب بداية النهضة الادبية والعلمية الحديثة فى لبنان البلد العربى الذى تكثر فيه المسيحية ، وان تكون الريادة فى هذا الميدان لآخواننا المسيحيين بالذات . فقد كان لبنان بوضعه الاجتماعى والدينى اكثر البلدان العربية اتصالا بالغرب . وبناء على ذلك فقد اتبحت لهم الفرصة لكسب المذهب العقلانى الذى اخذت الحضارة الغربية تسير عليه ، وراوا من واجبه ان يبحثوا لفتحهم ويكتبوا بها الادب والعلم ، بناء على الاساس الجديد . وقد ظهر من الابهاء اليسوعيين ومن غير الابهاء اليسوعيين من لبنان ممن قدموا للغة العرب والادب ما لا يجب ان يغفط حقه . واذا كان لى ان اشد بشيء فان الناحية العلمية التى هي من اختصاص بحثى هى التى يجب ان اذكرها . واخص هنا بفضل آل صروف ومجلة المقتطف . فقد قاموا بمجهود جبار فى نقل العلوم الحديثة الى اللغة العربية بقلب عربى ووضفوا اصطلاحات عربية جديدة وحاولوا احياء كثير من العلوم العربية والاصطلاحات العربية .

ولكن الذى يؤسف له حقا ان مجهودهم كان مجهودا فرديا ، اذ ما انقطعت مجلة المقتطف عن الصدور حتى وجدنا ان الحركة كلها قد وقفت فى هذا الاتجاه ، وبدأت فى الواقع حركة النهضة فى اتجاه آخر، هو الاتجاه الغربى المحض . فقد ازدهرت دراسة العلوم لكن بطابعها الغربى وفى الجامعات التى تدرس باللفات الغربية ، حتى ان معظم الدراسات العلمية كانت تهدف فى الواقع الى الكسب

المهني الحرفي الذي يستفيد منه المرء شخصياً ، وتنتهي الدراسة في العادة بالوصول الى هذا الغرض . اما البحوث العلمية التي تهدف الى زيادة المعرفة او الى خدمة المجتمع ككل فلم تكن نجد لها اثراً ظاهراً ، لان التخطيط للمجتمع والموارد الرئيسية للبلد لم يكن من هم الحكومات التي كانت معظمها تحت السيطرة الاستعمارية .

على اية حال ، حتى بعد استقلال الدول العربية لم تجر محاولات جديّة لجعل اللغة العربية لغة العلم الا في جامعة دمشق . اذ اصبح الطابع الغربي هو الغالب على حضارتنا .

الضياع الجديد

لا نزال بعد نهضتنا التي مر عليها اكثر من نصف قرن لا نعرف في الواقع اين نحن . فديننا الاسلامي يشدنا الى الروحانية والعقلانية والانسانية من ناحية ، ولكن الحضارة التي قدر لنا ان نجدها امام عيننا هي حضارة غربية بطابعها المادي العنيف . انها عقلانية ولا شك من حيث انها تستعمل العلم والذكاء والتجربة بكل عبقرية وفن . ولكن هدفها هو المادة وهو يهزأ بالانسانية والشعور الانساني . وبين الدين والحضارة التي نعيشها نجد انفسنا ضائعين . فهل نستعمل اللغة العربية في علمنا ؟ وهل نترك اللغات الاجنبية التي اصبحت مفاهيمنا جزءاً منها ؟ وكيف يمكن ان نبدا من جديد ؟ وما الفائدة من الرجوع الى العلماء العرب ما دامت الحقائق التي ذكروها اصبحت قديمة ؟ وكيف لنا ان نضع مصطلحات جديدة لآلاف المصطلحات التي اصبحت نعرفها بسهولة في اصولها الاجنبية ؟ بل اننا وصلنا الى درجة اصبح الكثير منا يجد ان اللغة العربية اعجز من ان توفي بهذه المتطلبات .

ولكن اللغة العربية في الكليات الادبية وفي المعاهد الدينية تزدهر وتنمو ، والقرآن حافظ امين لها . انها لا تعجز الآن عن اداء المعاني والمصطلحات في جميع الفروع الثقافية - ما عدا العلوم . فالى متى سوف يستمر هذا التناقض بين دراستنا العلمية والادبية ؟ وهل سنبقى بلغتين او باكثر ، العربية للاداب والشؤون الثقافية الاخرى ، والانجليزية او الفرنسية لشؤون العلم ؟

مجهودات مشكورة -

الواقع ان جعل اللغة العربية لغة العلم لا يمكن ان يحدث الا اذا اصبحت لغة التدريس في الجامعات . واطن ان الجامعة السورية يجب ان تحوز على قسط وافر من الثناء بهذا الخصوص . فلاساتذة الذين يدرسون فيها يبحثون ويتقنون عن اصول الكلمات العربية ويستعينون بالمجامع العلمية في هذه المهمة ويخرجون لنا بنتاج هو ذخّر في الواقع . وكثرة الكتب التي تظهر في هذا الميدان هي التي سوف تقرر رسوخ هذه الكلمات والمصطلحات . والواقع ان الاصطلاح او التعبير اذا وضع مجرداً لم تكن له قيمته الى ان يستعمل . وكثرة الكتب العلمية التي تنشر هي التي ستكون حافزاً لوضعها لكي يجدوا التعابير والمصطلحات المناسبة لما يكتبون . واذا اخذنا العلم مجرداً من الحضارة الغربية واصبحنا ندرسه في جامعاتنا باللغة العربية وزاد تمسكنا بالروح الاجتماعية الاسلامية العقلانية الانسانية فاتنا باذن الله واجدون لغة غنية فياضة تفيننا عن كل لغة اخرى .

مصادر البحث :

- 6 - بدائع السماء - تأليف جيرالد هوكنز - ترجمة عبد الرحيم بدر .
- 7 - كيف ترقب السماء - تأليف فرنكلين برانللي - ترجمة الدكتور محمد جمال الدين الفندي
- 8 - النفوس الميتة - تأليف نيقولاى جوجول - ترجمة انطون حمصى ويوسف بنا .
- 9 - Cassell's Latin Dictionary
- 10 - Webster's New World Dictionary
- 11 - Norton's Star Atlas

- 1 - المنجد - الطبعة الثامنة - للاب لويس معلوف اليسوعي .
- 2 - قاموس المحيط - لمجد الدين الفيروزابادى
- 3 - قاموس النهضة - لاسماعيل مظهر .
- 4 - صور الكواكب الثمانية والاربعين - لابي الحسين عبد الرحمن بن عمر الرازى المعروف بالصوفى .
- 5 - القانون المسعودى - لابي الريحان محمد ابن احمد البيروني .